عصره ومولده

بقلم الأستاذ
طه عبد الباقي سرور

مولده :

فى بقعة من بقاع فارس الجميلة العريقة ، الغنية بخيرات أرضها ، وثمار عقول أبنائها ، وفى ضحى العصر الذهبى للتصـــوف ، فى مطلع عام ٢٤٤ هـ : ٨٥٨ م - ولد الحسين ابن منصور الحلاج ، فى بلدة « تور » فى الشمال الشرقى من مدينة البيضاء[١] .

وتقدم لنا دائرة المعارف الإسلامية ، روايتين متناقضتين عن نسبه ، فالرواية الأولى تصعد به إلى أبى أيوب الأنصارى الصحابى الجليل وبذلك تجعله عربيا خالصا ، وتقول الرواية الثانية :

إنه حفيد مجوسى من أبناء فارس[٢]

والرواية التى تنسبه إلى الأنصار لم تثبت تاريخيا ، ولم يقل بها مؤرخ عربى ، فاجماع رجال التاريخ ، على أنه فارسى الأصل ، كما هو فارسى المولد .

---

(١) البيضاء مدينه مشهورة بفارس وهى أكبر مدينة فى كورة « اصطخر » وسميت البيضاء لأن لها كما يقول ياقوت فى معجمه . قلعه تبين من بعيد ويرى بياضها . وكانت معسكر الجند الاسلامى ومن أبنائها التاريخيين العلامه النحوى سيبويه .

(٢) الجزء الاول من المجلد الثامن ص ١٧

يقول ابن كثير[1] : «هو الحسين ابن منصور بن محمى الحلاج أبو مغيث ويقال أبو عبد الله ، كان جده مجوسيا ، اسمه «محمى» من أهل فارس من بلدة يقال لها البيضاء . ونشأ بواسط ، ويقال بتستر» .

ويقول المستشرق «ماسنيون» إن البقعة التى ولد فيها كانت من أعظم مناطق النسيج فى الامبراطورية الإسلامية ، وإن والده كان من عمال النسيج ، ولهذا سمى حلاجا ، وهو استنتاج فكرى من «ماسنيون» لم يقدم عليه من التاريخ شاهدا أو دليلا .

أما الرواية التاريخية التى أوردها ابن خلكان فى وفيات الأعيان ، فتروى عن ضمرة بن حنظلة السماك قال : «دخل الحلاج واسط(٢) وكان له شغل ، فأول حانوت استقبله كان لقطان ، فكلفه الحلاج السعى فى إصلاح شغله ، وكان للرجل بيت مملوء قطنا ، فقال له الحسين : اذهب فى إصلاح شغلى ، فإنى أعينك على عملك ، فذهب الرجل ، فلما رجع رأى كل قطنه محلوجا وكان أربعة وعشرين ألف رطل ، فسمى من ذلك اليوم حلاجا ولازمته هذه الكنية طوال حياته» .

وقد أورد ابن كثير(٣) أيضاً هذه الرواية ، وأضاف إليها رواية أخرى تقول : إن أهل الأهواز أطلقوا عليه هذه التسمية لأنه كان يكاشفهم بما فى قلوبهم فسموه حلاج الأسرار» .

وبعد مولد الحلاج بقليل ، اضطربت أحوال والده المالية ، فرحل من بلدة تور إلى مدينة واسط ينشد العمل فى ميادينها الاقتصادية الكبيرة .

وكانت واسط مركزاً من مراكز الإشعاع الفكرى والروحى فى فارس ، أسس بها الأشاعرة

---

(١) البداية والنهاية جـ١١ ص١٣٢

(٢) واسط مدينة بناها الحجاج الثقفى تقع بين البصرة والكوفة — معجم البلدان جـ ٤ ص ٨٨١

(٣) البدايه والنهايه جـ١١ص١١٣

مدرستهم الكبرى ، وأوجد فيها العلامة أبو على الجبائى ، نشاطا ثقافيا ، وتيارا علميا حرا ، يخضع كل شىء لمنطقه وطرائقه .

كما أقام بها الحنابلة مدرسة للقراء ، ومعهدا للحديث ، واتخذوا من مساجدها مقاعد للبحث والدرس والجدل والحوار .

وفى هذا الجو العلمى الحى ، نشأ الحلاج ، ولفت إليه الأنظار منذ طفولته ، بذكائه المتوثب اللماح وشفافية روحه ، وتفتح قلبه ، وحبه وإقباله على ينابيع العلم والمعرفة حتى ليحدثنا تاريخه ، أنه قرأ القرآن الكريم على أعلام القراء فى عصره ، وحفظه وجوده ، وهو فى العاشرة من عمره ، وتعمق فى فهم معانيه ، تعمقا ليس من طبيعة هذه الطفولة الغضة .

كما اشتهر بالإرادة القوية الموجهة والرياضات والمجاهدات الروحية الشاقة ، والزهد فيما يقبل عليه لداته من شئون الحياة ، ولهو الطفولة ، والاستغراق الكامل فى الصلاة والتأمل والتعلق بالدراسات التى تتناول المعرفة الروحية ، وما تحتوى عليه هذه المعرفة من أنوار وأسرار .

وأقبل الحلاج بكل ما فى قلبه من أشواق ، وما فى روحه من إشراق ، على علوم عصره من فقه وتوحيد وتفسير وحديث وحكمة وتصوف ، ولكنه كما يقول ماسنيون : « سرعان ما راح يبحث عن المعنى الرمزى الذى يرفع دعاء الروح إلى الله :

كان الحلاج يحس فى أعماقه دائما تلهفا واشتياقا إلى معرفة أرق وأدق مما يقرأه فى صفحات الكتب ومما يستمع إليه فى دروس العلم والعلماء .

معرفة تدنيه وتقربه من الله وتمنحه المعراج الذى تصعد عليه روحه إلى هداه .

كان يحس أن لروحه عند الصفاء والنقاء ، سبحات ملهمات تترقرق فيها معان مشرقات .

وإن قلبه عندما يأخذه الوجد الإلهى ، والحب الربانى ، تتفتح فيه منافذ يطل منها على ملكوت رائع الجلال والبهاء ، تلتمع فى آفاقه

حقائق أعلى وأسمى مما يتجادل فيه الناس ويتخاصمون .

وإذن فليعمل الحلاج على أن ترتفع روحه بالحب ارتفاعا يجعلها أهلا لهذه الحقائق التى يهبها الله لمن أرتضى من عباده ، وأصطفى من خلقه .

وانقطع الحلاج عن دروسه ، وأقبل على ملكوت السماء والأرض يقلب وجهه فى آفاقهما ، ويتأمل أسرارهما . ويقرأ بين سطورهما الخفية أسرارا وأسرارا .

وعكف على روحه وقلبه ، بالتصفية والمجاهدة ، حتى أعطيا كنوزهما وتفجرا معرفة ونورا .

ونذر نفسه لربه سبحانه ، وأقبل عليه بكل ذاته ، وقد أشتعلت أحاسيسه بالوجد ، والتهبت عواطفه بالحب ، إنه يستهدف أرتباط قلبه بالله ، وقرب روحه منه ، قربا يفنى فيه عن كل شىء ، ليبقى له بعد ذلك كل شىء .

إنه فناء الخالدين بربهم ، وهو فناء وخلود ، لا يعرفه إلا الأفق الصوفى .

وأخذ الحلاج نفسه بهذا المنهج أخذا عنيفا قاسيا ، والزم نفسه به طوال حياته ، حتى غدا طابعه الذى تشكل به وجوده المادى والروحى .

ولقد سئل عن المريد الصادق . فقال : « هو الرامى بقصده إلى الله عز وجل ، فلا يعرج حتى يصل » .

وهى كلمة تصور لنا منهج الحلاج وهدفه الذى عاش له وبه ، لقد رمى بقصده إلى الله سبحانه ، وسخر كل ملكاته العقلية والروحية لتحقيق هذا الهدف ، بل اتجه بكل أذواقه ومعارفه إلى آفاق هذا المعنى .

فكلمة التوحيد ، وهى السطر الأول فى كتاب الاسلام ، لا تكون صدقا وحقا كما يقول الحلاج ، إلا إذا عشناها وتذوقناها ، وفنينا فى معناها ، حتى كأننا حين ننطقها نسمعها من الله جل جلاله ، وحينئذن تنشق فى شغاف القلب ، وعين الوجدان ، ويموج كل شىء بالجلال والنور والمعرفة .

والقرآن الكريم كلام الله ،

فيجب على المؤمن أن يتذوق حقائقه تذوقا روحيا إيجابيا ، وأن تتمثل فيه هذه الحقائق تمثلا عمليا .

ألم تقل السيدة عائشة رضوان الله عليها ، وهى تصف رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « كان خلقه القرآن » .

ويمشى الحلاج بهذا الفهم خطوات حتى يقول : « إن المؤمن الصادق يصل به الامر حتى تكون « بسم الله » منه بمنزلة « كن » من الله سبحانه » .

أى أن « بسم الله » إن نطق بها من تحقق بحقائق القرآن وتذوقها وعاش بها تكون « بسم الله » منه ، لها من القوة والأثر ما لكلمة « كن » من الله سبحانه :

ومن كلمات شبابه التى تصور لنا منهجه قوله : « حقيقة المحبة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك والاتصاف باوصافه » .

إنها البذرة التى ستخرج منها فلسفة الحلاج فى مقام الفناء ! ! ؟ ويقول الحلاج : « من لاحظ الأعمال حجب عن المعمول له ـ الله ـ ومن لاحظ المعمول له حجب عن رؤية الأعمال .

وهذه الصورة المثالية السامية التى تصورها لنا تلك الكلمة ، سنجدها بصور أكمل وأسمى فى جهاد الحلاج وتضحياته .

تلك بعض خواطر الحلاج القلبية والروحية ، وهو فى مطلع شبابه قبل أن يسلك المنهج الصوفى على شيوخه ، وقبل أن ينتظم فى المدرسة الروحية العالمية ، مدرسة التصوف ، التى كانت تهيمن على العراق وفارس خلال القرن الثالث الهجرى :

شيوخه فى الطريق :

ولما بلغ الحلاج الثامنة عشر من عمره ، اتصل بالإمام الصوفى سهل ابن عبد الله التسترى ، وتلقى على يديه آداب الطريق ومنهجه .

وأعجب الحلاج بشخصية سهل ، وبادله شيخه الإعجاب والتقدير ، وتلازما ليل نهار ، حتى بلغ الحلاج العشرين من عمره ، فاعتزم أن يخرج من مدينة واسط الصغيرة إلى

العالم الفسيح ، فرحل إلى البصرة بعد أن ودع شيخه ، وترك كما يقول جانباً من قلبه معه .

وفى البصرة تتلمذ على شيخ من شيوخ التصوف هو عمر المكى الذى سيكون له أبعد الأثر فى حياته ، وفى نكبته ، ومن يده تلقى الحلاج خرقة الصوفية وعاش حياتهم .

ثم تزوج الحلاج فى البصرة ، بأم الحسين بنت أبى يعقوب الأقطع من زعماء البصرة وأهل الصدارة فيها .

وأتسم هذا الزواج بالحب والإخلاص وصاحبه التوفيق حتى النهاية ، فقد وفت له زوجه فى مجده وفى محنته وثبتت إلى جواره ورزق منها بثلاثة أبناء .

وكان شيخه المكى فى خصومة ملتهبة مع صهره ، امتدت آثارها إلى الحلاج ، فانقطع ما بينهما من مودة ، وقامت مكانها خصومة حادة حتى ضاق صدر الحلاج بالبصرة ، فارتحل إلى مدينة بغداد

الحلاج فى بغداد

يقول صاحب العبر : « تصوف الحلاج ، وصحب سهل بن عبد الله ثم قدم بغداد فصحب الجنيد والثورى وتعبد وبالغ فى العبادة »

وفى بغداد تتلمذ على أبى القاسم الجنيد سيد الطائفة ، وشيخها الكبير وتوثقت صلتهما ، واشتكى إليه من شيخه المكى فأمره الجنيد بالصبر ومراعاة حق شيخه

ثم أخذ ما بين الجنيد والحلاج يفتر ، فلكل منهما شخصيته ومنهجه ، وباعدت بينهما أحداث سنعرض لها فى الفصول القادمة إن شاء الله .

ويروى عن الجنيد قوله : « إننى أرى كثيرا من فضول الكلام فيما يقوله الحسين بن منصور »

ثم اتصل الحلاج برجال مدرسة رسالة القشيرى ، والتقى بصديق عمره « الشبلى » كما اتصل بمدارس التصوف واعلامه ، اتصالا لم يطل أجله ، فقد أخذ الحلاج يكوّن لنفسه منهجا ومدرسة وزعامة ، ذات أهداف دينية ودنيوية معاً

وكانت بغداد عاصمة الدنيا ، حضارة وثقافة ، وكانت تقدم للحلاج الكثير من المعرفة ، ومن

الروحية ، ومن دوافع الحركة والنشاط والجهاد

وفى بغداد تلاقت الثقافات العالمية ، كما تلاقت المذاهب والملل والنحل المختلفة ، وتصارعت كل هذه الألوان الفكرية وتلاحقت وصبغت الحياة الاسلامية بصبغتها وطابعها

ورأى الحلاج فى بغداد الصراع الفكرى المشبوب ، ورأى فى بغداد العصبيات القبلية بين الفرس والترك والعرب ، وبين القبائل العربية المختلفة ومثيلاتها :

ورأى ترفا ماجنا هلوكا ، ونظاما فاسدا ظالما ، وخلافة متكبرة متألهة .

وآمن الحلاج بان التصوف هو الذى يستطيع أن يهيمن على هذه المذاهب الفكرية المتعارضة ويوحدها فى منهجه الايمانى ، كما يملك القدرة على محو هذه الصبيات الجامحة ، بروحانيته العالية . وما تشع من أخوة ، وما تلهم من محبة . وفوق هذا وذاك فإن التصوف يستطيع بطبيعته النقية المترفعة . أن يحارب الترف والفساد والتأله الذى فرضته الخلافة العباسية على المجتمع الإسلامى .

الحلاج والأخوة الروحية :

ومن ثم أخذ الحلاج يفكر فى إيجاد كتلة شعبية تدعو إلى أخوة روحية فى الله ، وتستهدف وحدة العالم الإسلامى ، والنهوض به خلقيا وتعبديا حتى يعود إلى منهج الصدر الأول وقوته ، وروحانيته وإيمانه .

أخوة روحية تنبثق منها الوحدة الكاملة فى الشعور والمثل ، والمناهج والغايات .

فالمسلمون قرآنهم واحد ، ورسولهم واحد ، وعباداتهم قامت على النظام والوحدة . فالصلاة موقوتة بوقت محدد ، وكلها فى جماعة منتظمة فى صفوف متراصة ، تتجه إلى قبلة واحدة ، وتفنى أحاسيسهم فى استغراق تعبدى مشترك .

والصيام يبدأ بآذان الفجر ، وينتهى بآذان المغرب ، كأنه نفير عام يحشد الجنود ، جنود الروحانية الإسلامية . ليدربهم على النظام

والقوة ، والوحدة الكاملة .

والحج مؤتمر المسلمين الأكبر ، تضمهم بقاع مقدسة محددة ، وشعائر مفروضه مشتركة ، ويرمون عن يد واحدة جمرات موجهة إلى رمز هدوم المشترك .

ومع هذا فقد اختلفوا وتمزقوا وأعرضوا عن رسالتهم الخلقية ، وعباداتهم الربانية .

وأخذت هذه الخواطر تراود الحلاج ، فتؤرق جفونه ، وتوقظ أحاسيسه ، وتحرك قواه ، فأخذ يلقى بنفسه فى تيار الحياة ، ويتصل بالجماهير ، ويوثق صلاته بطوائف من الجند والقادة والأمراء والزعماء إتصالا ، لم يرض عنه المتزمتون من شيوخ التصوف ، ولم ترض عنه الخلافة ، ولم ترض عنه القوى المختلفه التى تحرك بغداد ، وتحكم العراق ، وتهيمن بالنالى على العالم الإسلامى .

ولكن هذه الصورة التى تمثل لنا الحلاج فى إهاب رجل الاصلاح الدينى والإجتماعى والسياسى ، لم تكن كل حياة الحلاج ، ولا كل جهاده ، ولا يمكن لهذه الصورة إن تمثله تمثيلا كاملا .

فالحلاج كان يتقلب فى حياتين ويعمل فى حقلين ، وكان يملك القدرة على المزج بينهما ، كما يملك الطاقة على النهوض بهما معا . كان الحلاج خلال معركته الاصلاحية ودعوته الشعبية ، يسلك طريقه الصوفى . ويسلكه فى عنف وقوة

لقد انفصم ماينه وبين شيوخه فى الطريق الصوفى ، فلم يتم تدريبه ، ولم يكتمل اعداده ، ولم تمهد له الأيدى المدربة المبصرة ، أيدى المربيين الروحانيين طريق الكمال الروحى .

والطريق الصـــوفى كما يقول المتصوفة ، طريق وعر شائك . تمتزج فيه البروق الخادعة ، بالانوار الهادية ، والخواطر المضللة بالألهامات المشرقة ، وفيه الاستدراج الخفى ، والامتحان الربانى ، وفيه العوائق النفسية ، والتيه القلبى ، والخداع الذوقى ، ولهذا اشترط الصوفية جميعا واتفقوا على أن الشيخ ضرورة فى الطريق لاغنى عنه للســالك المريد . . إنه كالطبيب للمريض ، يعرف المزاج والمرض والدواء ، وكالمهندس للبناء . إنه النور الذى يرشد . والمربى الذى يوجه ، والدليل المبصر الذى يفرق ويميز بين الخواطر والإلهامات ، ويملك القدرة على اختصار الطريق ، كما يملك التجربة الواعية التى ترسم لكل سالك ومريد

ما يلائمه ، وما يتفق مع ذوقه واستعداده وطبيعته.

والشرط الأول فى الطريق أن يستسلم المريد لشيخه استسلاما كاملا بلا اعتراض أو توقف ، وهى دكتاتورية لاتتفق مع طبيعة الحلاج الثائرة ، فتمرد عليها واختصم بشأنها مع شيخه عمر المكى ، وتجادل فيها مع شيخه الجنيد ، ولم يرض الشيوخ عن هذه الروح الثائرة ! ؟

واستقل الحلاج بنفسه ، وأخذ يسلك الطريق وحده ، وأخذ يجاهد نفسه ويدربها ويكلفها أشق مافى التصوف من تكاليف ، ويفرض عليها أقسى مافى المنهج الروحى من وسائل التجرد والزهد والعبادة والرياضة .

وابتدع لنفسه طريقا حلاجيا استهدف به الكمال القلبى والخلقى ، واتصال روحه بربه اتصال حب وشوق وفناء ، اتصالا سيعرف فى التاريخ باسم « معراج الحلاج » ، وهو معراج يتفرد فى تاريخ الحياة الروحية ، بخصائص وسمات لم تعرف لسواه .

وكان الحلاج فى جهاده الروحى ، وفى نضاله الشعبى . سريع التقلب والحركة ، إن فى روحه ثورة ، وفى قلبه أهواء متعددة ، وفى وجدانه وأحلامه إستشراف وتطلع لآفاق يحسها ويدركها ببصيرته واضحة حينا ، غامضة أحيانا ! ؟

إن روحه لم تظفر بعد بأفقها المستقر المبين ، وإن قلبه لم يصل بعد إلى مقام الثبات والتمكين ، ومن هنا جاء التلون فى السلوك الذى اتسمت به حياة الحلاج فى دورها الأول .

يقول ابن كثير . . وقد كان الحلاج يتلون فى ملابسه ، فتارة يلبس لباس الصوفية ، وتارة يتجرد فى ملابس زرية ، وتارة يلبس لباس الاجناد ، ويعاشر أبناء الأغنياء والملوك والقواد وقد رآه بعض أصحابه فى ثياب رثة ، وبيده ركوة وعكاز وهو سائح ، فقال له : ما هذه الحالة يا حلاج ؟ فأنشأ يقول :

لأن أمسيت فى ثوبى عديم
لقد بليا على حر كريم
فلا يغررك إن أبصرت حالا
مغيرة عن الحال القديم
فلى نفس ستتلف أو ستترقى
لعمرك بى إلى أمر جسيم

كان الحلاج يتلمس طريقة إلى أمر جسيم ، طريقه بشقيه الصوفى والاصلاحى وقد اعتزم فى إصرار حاسم ، أن يبلغه أو يهلك دونه ؟

البحث مستمر

طه عبد الباقى سرور